أولو الألباب

الطبعة الأولى ١٤٤٣ هـ

أولو الألباب

(العقلاء)

تأليف

محمد شومان الرملي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربنا يخلق ما يشاء ويختار، خلق الخلق فجعل منهم الأخيار والأشرار، والمتقين والفجار، يكوِّر النهار على الليل، ويكوِّر الليل على النهار.

والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله محمد النبي المصطفى المختار، وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار.

أما بعد، فإن العقلاء ينقسمون إلى قسمين:

قسم عَرفوا ما خُلِقوا له، وعرفوا الحكمة والسبب من خلقهم ووجودهم في هذه الحياة، وعرفوا هدفهم فيها، وفهموا عن الله تعالى، وعقلوا ما أراده منهم، فعملوا بمقتضاه، فهم قوم سمعوا، وعقلوا ما سمعوا، وأطاعوا، وعلموا أن الآخرة أبدية باقية، والدنيا مؤقتة زائلة، فاتخذوا الدنيا ممرًّا، والآخرة مقرًّا، فتزودوا من ممرِّهم لمقرِّهم:

إن لله عبـــــادًا فُطَنَـــــا   طلقوا الدنيا وخـافوا الفِتَنَـا
نظـروا فيهـا فلمـا علمـوا   أنهـا ليســت لـحيٍّ وَطَنَـا
جعلوهـــا لجـــةً واتخـــذوا   صالحَ الأعمال فيهـا سُـفُنَا

فهؤلاء هم العقلاء حقًّا: صفوة الإله، وخلاصة العالم، ولب الخليقة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر:١٨][(١)].

وقسم لم يعرفوا شيئًا من ذلك، فعاش الواحد فيهم حياته وقضى دنياه هكذا سَبَهْلَلًا، لا هَمّ لهم إلا قضاء شهوات بطونهم وفروجهم ونفوسهم، ولا هَمّ لهم إلا جمع المال واستعماله فيما يعين على تحصيل ما يشتهون، لا يلتفتون إلى الآخرة ولا يهتمون بها، فهؤلاء ـ ولو كانوا أعلم الناس في أمور الدنيا ـ، فإنهم هم الجهال حقًّا، ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

لأن الآخرة لو كانت ـ كما قيل ـ خزفًا يبقى، والدنيا ذهبًا يفنى، لكان حقّ العاقل أن يؤثر ما يبقى على ما يفنى، كيف وما يُقِلّه ظُفْر مما في الآخرة خير من الدنيا وما فيها؟!!

هذا على اعتبار الأمور المادية! فكيف لو نظرنا إلى

---

(١) الألباب: العقول، مفردها: لُبّ، وأولو الألباب: أصحاب العقول، واللُّبّ أخص من العقل، وهو الخالص منه والكامل والصحيح والسليم. فلُبّ الشي: خالصه وخياره وجوهره. ولُبّ الثمرة: جوفها ووسطها وما يؤكل منها، ويقابله القشرة. واللبيب: ذو اللّبّ. ويكون: رزينًا مدركًا حازمًا وقورًا حليمًا عفيفًا.

الأمور المعنوية؟! وأن العاقل اختار معرفة الله تعالى وذكره ورضاه والقرب منه، مما فيه حياة الأرواح ونعيمها ولذتها، التي لا تقارَن بأي لذة مادية، من مآكل ومشارب وغيرها؟!

عندها تعلم أن الأول هو اللبيب العاقل، والثاني هو الأحمق الجاهل!

وهذا على فرض أن هؤلاء الجهلة يؤمنون بالله واليوم الآخر! أما إذا كانوا غير ذلك فهم أكفر الكفرة، وأجهل الجهلة.

وهذه ورقات ذكرت فيها مَنْ هم العقلاء، وصفاتهم، وشأنهم، ترغيبًا لمن سمت نفسه إلى أن يكون منهم، فيتصف بصفاتهم، أو يتشبه بهم، ويسلك طريقهم، ويكون رفيقهم.

فالنفوس الشريفة العزيزة تطلب الكمال ولا تقبل النقص، وتسعى إلى المعالي ولا ترضى بالدون، ولو شق ذلك عليها، ولو تعبت منها الأجسام، كما قال المتنبي:

وإذا كانت النفوسُ كبارًا ... تعبت في مرادها الأجسامُ

وكما قال:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمامِ

والكمال كل الكمال في عبادة الإله الكامل من كل وجه، والتقرب إليه بكل وسيلة، طلبًا لمرضاته، والقرب منه، والتمسك بكتابه، وهدي رسوله ﷺ، ففيهما الرفعة والسمو والشرف العالي الرفيع في الدنيا والآخرة:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

والكمال كل الكمال بالاستعداد للقاء الله عز وجل، والاجتهاد في ذلك، والمسارعة فيه، واغتنام فرصة العمر القصيرة قبل انتهائها، فالعاقل المستعد، والأحمق المسوِّف، كما قيل: الكَيِّس مَنْ دان نفسَه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتْبع نفسَه هواها وتمنى على الله الأماني.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال:

«أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا». قال: فأي المؤمنين أَكْيَس؟ قال: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ»[1].

وبالله التوفيق.

محمد شومان ١٤٤٣هـ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩) وغيره، وهو حديث حسن بطرقه، كما في «الصحيحة» (٣٧٣/٣).

من هم أولو الألباب؟

أولو الألباب هم الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت، وأنابوا إلى الله تعالى، بعبادته وحده وذكره وطاعته والتوبة إليه، وهم الذين يتّبعون القرآن.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۞ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

الطاغوت: على وزن فَعَلُوت، مِن طغى يَطْغَى طغيانًا، إذا تجاوز الحد، والطاغوت: هو كل ما عُبِد من دون الله عز وجل، فالشيطان هو الطاغوت الأكبر، والأصنام طواغيت، والذي يحكم بغير من أنزل الله طاغوت، (وهذه اشتُهرت على ألسنة الذين يَسْعَون لإقامة حكم الله في الأرض)، ويكون المقصود من الطاغوت بحسب السياق، وإلّا أُطلِق معناها فكان: كل ما عُبِد مِن دون الله راضيًا بذلك.

ومعنى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، في غير هذا الموضع: أي: يَكفر بعبادته مِن دون الله، فالمسيح عليه الصلاة والسلام عُبِد من دون الله، فيُكفر بعبادة مَن عبده، ولا يُكْفَر به هو!

قال شيخ الإسلام[1]: «والطاغوت: فَعَلُوت من الطغيان. كما أن الملكوت فَعَلُوت من الملك، والرحموت والرهبوت والرغبوت فعلوت من الرحمة والرهبة والرغبة، والطغيان: مجاوزة الحد، وهو الظلم والبغي، فالمعبود مِن دون الله إذا لم يكن كارهًا لذلك طاغوت».

وقال الشنقيطي: «والتحقيق أن كل ما عُبِد مِن دون الله فهو طاغوت، والحظ الأكبر من ذلك للشيطان». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَـٰبِ﴾، قال ابن سعدي: «أي: العقول الزاكية، ومن لُبِّهم وحزمهم أنهم عرفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إيثاره على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال، حسنها وقبيحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز، لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعًا لشهوته فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل».

وقال المراغي: «﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَـٰبِ﴾؛ أي: وأولئك هم أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة، التي لا تطيع الهوى، ولا يغلبها الوَهم، فتختار خير الأمرين في دينها ودنياها».

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٠٠-٢٠١).

أولو الألباب
هم المؤمنون المتقون

وأولو الألباب هم المؤمنون، وخطاب التقوى موجهٌ إليهم، قال الله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۞ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ [الطلاق:١٠-١١].

فوجّه سبحانه الأمر بالتقوى، وجعل إنزال الذكر على أولي الألباب الذين آمنوا، وخصهم بذلك، مع أنه للناس عامة، لأنهم هم الذين يعقلونه ويفهمونه، ويهتدون به ويتذكرون، ويعملون به ويقتدون.

وقال عز وجل: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٩].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:١٩٧].

وقال عز وجل: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة:١٠٠].

أولو الألباب
أهل ذكر وفكر

ودعاء ومناجاة وابتهال، وانتفاع بما يرونه من عجائب خَلْق الله وصنعه: يذكرون الله في كل أحيانهم، وعلى كل أحوالهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ويعلمون أنها ما خُلِقت باطلًا، ويخافون عذاب النار، ويسألون الله أن ينجيهم منها، قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٤].

فانظر إلى هذا الإيمان الراسخ الذي أثمره لهم ذكرُهم

الكثير لله العظيم، وطولُ تفكرهم في خلق السموات والأرض، وانظر ما دعاهم إليه وما وصلوا به من نتيجة أخيرة، وهي الإيقان بأن هذه المخلوقات ما خلقت عبثًا، وأن العباد لن يتركوا سدى، فأزعجهم ذلك إلى الخشية من عقاب الله تعالى، والخوف الشديد من النار، فاستجاروا منها ومن الخزي في دار البوار، وسارعوا بطلب مغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، ورغبوا إلى ربهم بطلب الأجر الكريم والنعيم المقيم، كما وعدهم سبحانه على ألسنة رسله، عليهم الصلاة والسلام.

اللـهم اجعلنا منهم، ولا تحرمنا ثوابهم!

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه رقد عند رسول الله ﷺ، فاستيقظ فتسوك وتوضأ وهو يقول: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:١٩٠]. فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة. الحديث[١].

(١) متفق عليه، والسياق لمسلم. وبوب له النووي في «الأذكار» بقوله: «باب ما يقول إذا استيقظ في الليل وخرج من بيته». فقيَّده بالخروج من البيت. ثم قال: «يستحب له إذا استيقظ من الليل وخرج من بيته أن ينظر إلى السماء ويقرأ الآيات الخواتم من سورة «آل عمران»: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾إلى آخر السورة».

وفي لفظ: فقام نبي الله ﷺ من آخر الليل، فخرج فنظر في السماء، ثم تلا هذه الآية في «آل عمران»: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، حتى بلغ: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]. ثم رجع إلى البيت فتسوك وتوضأ، ثم قام فصلى، ثم اضطجع، ثم قام، فخرج فنظر إلى السماء، فتلا هذه الآية، ثم رجع فتسوك فتوضأ، ثم قام فصلى.

وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٢١].

أولو الألباب
هم أهل التذكر والاعتبار

وأولو الألباب هم أهل التذكر والاتعاظ دون غيرهم، وهم أهل الاهتداء، وأهل القيام، القانتون، العابدون، الخائفون من الله تعالى، الراجون رحمته، وهم العالمون الذين لا يستوون مع الجهلة أبدًا.

قال سبحانه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ

ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، يقول تعالى ذكره: إنما يعتبر حجج الله، فيتعظ ويتفكر فيها ويتدبرها أهل العقول والحِجَا، لا أهل الجهل والنقص في العقول». اهـ

وعليه: فما داموا هم الذين يتذكرون ما ذُكِر ويتعظون به، فسيكونون ولا بد أول القائمين به.

وقال سبحانه: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾، قال ابن سعدي: «وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرًا كثيرًا، وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوتيه العلمية والعملية، فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل

قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين: قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عَرَض لفِطَرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾».

وقال في موضع آخر: «﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾؛ أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: أهل العقول الرزينة؛ لب العالم وخلاصة بني آدم، يصل التذكير إلى عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخُلُوّهم من العقول النافعة».

وفي الآيتين دليل واضح على أن كمال العقل إنما هو بحسب ما يُؤتاه العبدُ من العلم والإيمان، وهو الذي يثمر صالح الأعمال والأحوال، وهو الذي يثمر العبادات العملية والقلبية، فأهل العلم هم أهل الفهم والتعقل، وهم سادة الخليقة.

وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤١-٤٣].

فأهل العلم هم المختصون بفهم ما يضربه الله للناس من الأمثال، وهم الذين يعقلون فِيمَ ضُربتْ، ولِمَ ضربتْ، وعلى أي شيء تُوقَع وتُنَزَّل.

قال ابن عاشور: «أي: لا يفهم مغزاها إلا الذين كملت عقولهم، فكانوا علماء غير سفهاء الأحلام، وفي هذا تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بها جهلاء العقول، فما بالك بالذين اعتاضوا عن التدبر في دلالتها باتخاذها هزءًا وسخرية؟!». اهـ.

وقال عز وجل: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [:٥٢].

وقال عز وجل: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [غافر:٥٣-٥٤].

أولو الألباب
يعلمون أن القرآن هو الحق

وأولو الألباب يعلمون أن القرآن هو الحق، ويوفون بعهد الله تعالى، ولا ينقضون الميثاق، ويتصفون بصفات أخرى عظيمة، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ * وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ * وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ

﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:١٩-٢٤].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لَبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضًا، لا يضاد شيء منه شيئًا آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، فلا يستوي من تحقق صِدْق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له، ولا صدّقه ولا اتّبعه، ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾؛ أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف.

﴿ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾؛ أي: فيما يأتون وما يذَرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ﴿ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴾، في الدار الآخرة. فلهذا أمْرُهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ ﴾؛ أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا نفوسهم عن ذلك لله عز وجل، ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه. ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها، على الوجه الشرعي المرضي.

﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ ﴾؛ أي: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾؛ أي: في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، في آناء الليل وأطراف النهار.

﴿ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾؛ أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرًا واحتمالًا وصفحًا وعفوًا، كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ

عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

ولهذا قال مخبرًا عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار».

أولو الألباب
يعتبرون بقصص الماضين

وأولو الألباب يعتبرون بقصص الماضين، وأخبار السالفين، وعقوبات المكذبين.

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:١١١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٣٣-٣٥].

أولو الألباب
ينتفعون بالآيات الكونية

وأولو الألباب هم الذين يعقلون الآيات الكونية والنفسية إذا ما تفكروا فيها، وهم الذين ينتفعون بها، وتأمل مجيء قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وبعدها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، في الآيات التالية:

قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٣-٤].

قال ابن عاشور: «أجرى صفة التفكير على لفظ قوم إشارة إلى أن التفكير المتكرر المتجدد هو صفة راسخة فيهم، بحيث جُعِلتْ من مقومات قوميتهم؛ أي: جِبِلَّتهم».

ثم قال: «ووُصِفتْ الآيات بأنها من اختصاص الذين يعقلون تعريضًا بأن من لم تقنعهم تلك الآيات منزلون منزلة

مَنْ لا يعقل، وزِيدَ في الدلالة على أن العقل سجيةٌ للذين انتفعوا بتلك الآيات بإجراء وَصْفِ العقل على كلمة «لقوم»، إيماءً إلى أن العقل من مقومات قوميتهم». اهـ.

وقال عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل:١٠-١٢].

وقال عز وجل: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم:٢١-٢٤].

فالتفكر وسيلة للتعقل والتفهم، وكلما ازداد تفكرًا

وتعمَّق في تفكره زاد تعقله للآيات، وارتفع مستوى فهمه لها، وأيضًا، فإن العقل إذا كان صحيحًا سليمًا ناضجًا ساعد في إعمال الفكر، وأثمر اتحادُهما واشتراكُهما ثمرته المرجوّة، وآتى أُكله الطيب ضعفين، بإذن الله تعالى.

ثم قال تعالى بعدها: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم:٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ

فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية:٣-٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۞ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل:٦٦-٦٧].

وقال عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٢١].

وقال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۞ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه:٥٣-٥٤].

قال ابن عاشور: «لا جرم أن ذلك المذكور مشتمل على آيات جَمة يتفطن لها ذوو العقول بالتأمل والتفكر، وينتبهون لها بالتذكير.

والنُّهَى: اسم، جمع نُهْيَةٍ ـ بضم النون وسكون الهاء ـ؛ أي: العقل، سُمِّيَ نُهْيَةً لأنه سبب انتهاء المتحلي به عن كثير من الأعمال المفسدة والمهلكة، ولذلك أيضًا سُمِّيَ بالعقل وسُمِّيَ

بالحِجْر[1]». اهـ.

قلت: و«النُّهَى»، لم تُذكر في كتاب الله عز وجل بلفظها إلا في هذين الموضعين من «سورة طه»!

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:١-٥].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾، يقول تعالى ذكره: هل فيما أقسمت به من هذه الأمور مقنع لذي حِجْر، وإنما عُنِيَ بذلك: إن في هذا القسم مكتفًى لمن عَقَل عن ربه مما هو أغلظ منه في الإقسام.

فأما معنى قوله: ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾، فإنه: لِذي حِجَا وذي عقل، يقال للرجل إذا كان مالكًا نفسه قاهرًا لها ضابطًا: إنه لذو حِجْر، ومنه قولهم: حَجَر الحاكم على فلان».

وقال ابن سعدي: «﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾؛ أي: لذي عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

---

(١) يقصد: لأنه يَعقل صاحبَه ويَحجِره؛ أي: يُقَيّده ويَمنعه.

الكفار جهلة لا يعقلون

ويقابل أولي الألباب: الجهلة، وهم الغافلون عن الآخرة، كما أشرنا إليه في المقدمة، فهؤلاء جهلة حتى ولو كانوا علماء بأمر الدنيا، وأصحاب عقول عظيمة فيها، وبنَوْا إلى السحاب الناطحات، وصنعوا الصواريخ عابرة القارات، ووصلوا إلى القمر والمريخ، وطالعوا النجوم والكواكب والمجرات، وحتى لو اخترقوا الذرة، وشطروا النواة، وأذهلوا العالم بالتِّقْنِيات (التكنولوجيات)، وأدهشوا الدنيا بالصناعات، فما دام علمهم لم يوصلهم إلى الاعتراف بعظمة الله خالقهم عز وجل وقدرته، وأن وراء ما شاهدوه من عجائب الكون إلهًا مبدِعًا، واحدًا قهارًا، يستحق أن يعبد وحده، ويُنبذ ما سواه، فإنهم في ميزان الشرع والدين جهلة! إذ لا علم لهم بأشرف العلوم وأنفعها: العلم بالله عز وجل، وكتابه، وهَدي رسوله ﷺ، والعلم باليوم الآخر، ولا قدْر عندهم لهذه العلوم، قد اقتصروا على علوم الدنيا، ورضُوا بها، واطمأنوا بها، وأُعجبوا بها، وظنوا أنهم على شيء، وما هم على شيء!

فهل هؤلاء عقلاء؟! وهل هؤلاء أولو ألباب؟! فمِيزة العقل النظر في العواقب، وعَقْلُ صاحبه عن المخاطر، وإذا خلا

منها فليس ثَمّ عقل ولا عاقل!

قال الله تعالى ذامًّا لهم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۞ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم:٧-٨].

وفي «الدر المنثور»[١]: «عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، يعرفون عُمران الدنيا، وهم في أمر الآخرة جهال.

وعن قتادة قال: يعلمون تجارتها وحِرفتها وبَيعها.

وعن عكرمة رضي الله عنه قال: معايشهم وما يصلحهم.

وعن الحسن قال: لَيَبْلُغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه! وما يحسن يصلي!».

وقال ابن سعدي: «ولو نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، وما حُرِموا من العقل العالي، لعرفوا أن الأمر لله والحكم له في

---

(١) (٤٨٤/٦)، مختصرًا.

عباده، وإنْ هو إلا توفيقه وخذلانه، ولخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه». اهـ

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٠-٢٣]

وقال عز وجل: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:٤٢]

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۞

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧٠-١٧١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۞ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۞ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۞ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الطور:٢٩-٣٣]. الآيات.

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه، ثم نفى عنه ما يَرميه به أهلُ البهتان والفجور فقال: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾؛ أي: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذي يأتيه الرِّئِي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾: وهو الذي يتخبطه الشيطان من المَسّ.

ثم قال تعالى منكرًا عليهم في قولهم في الرسول، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾؛ أي: قوارع الدهر. والمنون: الموت. يقولون: نُنْظِرُه ونصبر عليه حتى

يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه. قال الله تعالى: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ أي: انتظروا فإني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنُّصرة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾؛ أي: عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾؛ أي: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك[(١)]».

وقال ابن سعدي: «﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾؛ أي: أهذا التكذيب لك والأقوال التي قالوها، هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فبئس العقول والأحلام التي هذه نتائجها، وهذه ثمراتها، فإن عقولًا جعلتْ أكمل الخلق عقلًا مجنونًا، وأصدق الصدق وأحق الحق كذبًا وباطلًا، لهي العقول التي يُنزَّه المجانين عنها،

(١) المعنى: أن عقولًا كاملة راجحة لا تأمر بهذا، فلما أمرتهم به بسبب طغيانهم كانت بمثابة لا عقول! وهذا لوم لهم وتجهيل شديد، كأنك تقول: أين أحلامكم التي تأمركم بهذا؟! أين أضعتموها؟! يا مَنْ تُعَدُّون أهلَ الأحلام!

أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع، فالطغيان ليس له حد يقف عليه، فلا يُستغرب من الطاغي المتجاوز الحد كل قول وفعل صدر منه». اهـ.

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:٥٨].

وقال تعالى حاكيًا عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٦٣].

قال ابن سعدي: «هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنت لو سألتهم من خلق السماوات والأرض، ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وحده، ولاعترفوا بعجز الأوثان ومن عبدوه مع الله على شيء من ذلك.

فاعْجَبْ لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئًا، وسجِّل عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلًا وأقل بصيرة ممن أتى إلى حَجَر أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صَرَف له خالص الإخلاص وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق النافع الضار. و﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الذي بيّن الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموفقون».

وقال ابن عاشور: «و﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾: إضراب انتقال من حمد الله على وضوح الحُجج إلى ذم المشركين بأن أكثرهم لا يتفطنون لنهوض تلك الحُجج الواضحة، فكأنهم لا عقل لهم، لأن وضوح الحُجج يقتضي أن يفطن لنتائجها كل ذي مِسْكَةٍ من عقل، فنُزِّلوا منزلةَ مَنْ لا عقول لهم.

وإنما أسند عدم العقل إلى أكثرهم دون جميعهم لأن من عقلائهم وأهل الفطن منهم من وضحت له تلك الحُجج، فمنهم من آمنوا، ومنهم من أصروا على الكفر عنادًا». اهـ.

وهذا باب واسع يطول، والمقصود: أن الكفرة جهلة لا يعقلون، وضُلّال لا يفقهون، مهما ارتفعوا في العلوم الدنيوية، ومهما بلغوا فيها[1]، وسيندمون على كونهم لم يصغوا إلى الحق، ولم يعقلوه، ولم يتبعوه، ولكن، ولات حين مندم! كما قال الله عز وجل:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۞ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ۞ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۞ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٦-١١].

نعوذ بالله تعالى من حالهم ومآلهم، ونسأله سبحانه العفو والعافية، وأن يتوفانا مسلمين، ويلحقنا بالصالحين.

كل معصية جهالة

وللعصاة نصيب من الجهل، فكل عاص لله فهو بسبب معصيته جاهل، وكل معصية جهالة.

---

(١) وانظر في هذا الموضوع - إن شئت - ما كتبتُه مختصرًا في رسالة مستقلة بعنوان: «أيها الغافلون»!.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:١٧].

قال ابن القيم[١]: «والجهالة هاهنا جهالة العَمْد، وإن كان عالمًا بالتحريم.

قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصِي اللهُ به فهو جهالة، عمدًا كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل».

فبين العاصي والكافر اشتراك وتشابه في فعل المعصية، وله نصيب من العقاب والتوبيخ والذم، بحسب كثرة معاصيه وقلتها، والمعاصي بريد الكفر، وأعظمها الكبائر، فإن كان الكافر لا يعقل فالعاصي أيضًا له نصيب من نقص العقل، بل إن كل مشتغل بالدنيا لاهٍ عن الآخرة، ينقص ذلك من عقله

(١) «مدارج السالكين» (٢٩٤/١).

ويفوّت من أجره ومنزلته بمقدار تقصيره وغفلته.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: الْخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فِطْر إلى المصلى، فمر على النساء، فقال:

«يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ». فَقُلْنَ: وبِمَ يا رسول الله؟ قال:

«تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ».

قُلْنَ: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال:

«أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟» قُلْنَ: بلى. قال: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٥ – موارد) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٢٩١).

تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟» قُلْنَ: بلى. قال: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا»[(١)].

وفي لفظ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَوَاقِصِ عُقُولٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ بِقُلُوبِ ذَوِي الْأَلْبَابِ مِنْكُنَّ».

وليس الشاهد من الحديث جملة: «نَاقِصَاتِ عَقْلٍ»، فإن نقص العقل هذا ليس هو موضوع بحثنا، فإنه ليس بسبب المعصية، إذ إنه مقدّر على النساء، ولا حيلة لهن فيه، وإنما الشاهد قوله ﷺ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ **أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ** الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»، وأن النساء يذهبن بعقول الرجال، وليس أحد مثلهن في ذلك! كما قال ﷺ:

«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»[(٢)].

وعن الأحنف بن قيس قال: جلست إلى ملإٍ من قريش، فجاء رجل خَشِنُ الشعر والثياب والهيئة، حتى قام عليهم فسلم، ثم قال: بشر الكانزين برَضْفٍ يُحمى عليه في نار جهنم،

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري بهذا اللفظ من حديث أبي سعيد، وأخرجه مسلم بنحوه، من حديث ابن عمر وجابر بن عبد الله وغيرهما. واللفظ الثاني عند أحمد وغيره، من حديث أبي هريرة، رضي الله عنهم أجمعين. وهو في «الصحيحة» (٣١٤٢).

(٢) متفق عليه.

ثم يوضع على حَلَمَةِ ثدي أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ كَتِفِهِ، ويوضع على نُغْضِ كَتِفِهِ حتى يخرج من حَلَمَةِ ثديه، يتزلزل.

ثم ولّى فجلس إلى سارية، وتبعته وجلست إليه وأنا لا أدري من هو؟ فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذي قلت، قال: إنهم لا يعقلون شيئًا، قال لي خليلي. قال: قلت: من خليلك؟ قال النبي ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَتُبْصِرُ أُحُدًا؟» قال: فنظرت إلى الشمس ما بقي من النهار، وأنا أرى أن رسول الله ﷺ يرسلني في حاجة له، قلت: نعم. قال: «مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، أُنْفِقُهُ كُلَّهُ، إِلَّا ثَلاَثَةَ دَنَانِيرَ».

وإن هؤلاء لا يعقلون، إنما يجمعون الدنيا، لا والله، لا أسألهم دنيا، ولا أستفتيهم عن دين، حتى ألقى الله[1].

الدعوة إلى التعقل

قال الله عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: أفلم يسيروا هؤلاء المكذبون بآيات الله والجاحدون قدرته في البلاد، فينظروا إلى مصارع ضُرَبائهم من مكذِّبي رسل الله الذين خَلَوْا من قبلهم، كعاد وثمود وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكروا فيها ويعتبروا بها، ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سنةَ الله فيمن كفر وعبد غيره وكذّب رسله، فينيبوا من عتوّهم وكفرهم، ويكون لهم إذا تدبروا ذلك واعتبروا به وأنابوا إلى الحقّ ﴿قُلُوبٌ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ حُجَج الله على خلقه وقدرته على ما بيّنا، ﴿أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَا﴾، يقول: أو آذان تُصغي لسماع الحقّ فتعي ذلك وتميّز بينه وبين الباطل.

وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، يقول: فإنها لا تعمى أبصارهم أن يبصروا بها الأشخاص ويرَوْها، بل يبصرون ذلك بأبصارهم، ولكن تعمى قلوبهم التي في صدورهم عن إبصار الحق ومعرفته».

وقال ابن كثير: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى

العِبر، ولا تدري ما الخبر.

وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في هذا المعنى:

يا من يُصيخ إلى داعي الشقاء وقدْ
نادى بـه الناعيـانِ: الشـيبُ والكِـبَرُ
إن كنت لا تسمعُ الذكرى ففِيمَ تُرى
في رأسك الواعيانِ: السـمعُ والبصـرُ
ليس الأصمُّ ولا الأعمى سوى رجلٍ
لـم يهـده الهاديـانِ: العـينُ والأثـرُ
لا الدهرُ يبقى ولا الدنيا ولا الفَلَكُ الْـ
أعلى ولا النَّـيِّرانِ: الشـمسُ والقمـرُ
لـيرحلنّ عـن الدنيـا وإن كرهـا
فِراقَهـا الثاويـانِ: البَـدْوُ والحضـرُ

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات:١٣٣-١٣٨].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، يقول: أفليس لكم عقول تتدبرون بها وتتفكرون، فتعلمون أن من سلك

من عباد الله في الكفر به وتكذيب رسله مسلك هؤلاء الذين وَصف صفتهم من قوم لوط، نازل بهم من عقوبة الله مثل الذي نزل بهم على كفرهم بالله وتكذيب رسوله، فيزجركم ذلك عما أنتم عليه من الشرك بالله وتكذيب محمد عليه الصلاة والسلام».

وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يس:٦٠-٦٢].

وقال سبحانه: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

وقال: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۖ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يس:٦٨].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [المؤمنون:٨٠].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس:١٦].

قال ابن سعدي: «﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أني حيث لم أتقوّله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أتقوّله بعد

ذلك، وقد لبثت فيكم عُمُرًا طويلًا تعرفون حقيقة حالي، بأني أُمّيّ لا أقرأ ولا أكتب، ولا أدرس ولا أتعلم من أحد؟!

فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء، وأعيا العلماء، فهل يمكن مع هذا أن يكون من تلقاء نفسي، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟!

فلو أعْمَلْتُم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزمتم جزمًا لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال».

وقال تعالى حاكيًا عن نبيه هود عليه والسلام: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [هود: ٥١]

لعلكم تعقلون

وأنزل الله تعالى كتابه قرآنًا عربيًّا، وبين للناس فيه الآيات الكونية والآيات الشرعية، وفصَّل الأحكام، ووصَّى الوصايا، من أجل حصول التعقل منهم والفهم؛ أي: ليعقلوها ويفهموها على أحسن وجه وأتمه وأكمله، فيعتبروا بها ويتعظوا، ويسمعوا ويطيعوا، كما قال سبحانه خاتمًا

سورة إبراهيم: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [إبراهيم:٥٢]

وقال ابن سعدي، وما أحسن ما قال!: «فلما بين البيان المبين في هذا القرآن قال في مدحه: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾؛ أي: يتبلغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد، ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾، لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعد الله لأهلها من العقاب، ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، حيث صرّف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته ما صار ذلك حق اليقين.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾؛ أي: العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر، إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم، لَمّا أخذوه غضًّا طريًّا، فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يَستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها.

وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي لم يزل في صعود ورُقِيّ على الدوام في كل خصلة حميدة». اهـ.

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢].

وقال: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الزخرف:٣].

وقال سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الحديد:١٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [غافر:٦٧].

وقال عز وجل: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [النور:٦١].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ

﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١].

وقال الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٢-٧٣].

أفلا تعقلون

وكثيرًا ما خاطب الله عز وجل عباده بقوله: (أفلا تعقلون؟)، وكان معظم ذلك في تنبيههم إلى أن الدار الآخرة خير للمتقين!

قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢].

وقال سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف:١٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف:١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص:٦٠].

❑❑❑❑❑

خاتمة

وأخيرًا، فالمؤمن العاقل، المعظِّم لله عز وجل، الذي يعرف قدر كلامه، وشأن ندائه، بمجرد أن يسمع قوله تعالى: يا أولي الألباب! يا أولي الألباب! تستشرف نفسه ـ إذا كان ذا همة علِيّة ـ لتكون منهم، وتتطلع إلى الاتصاف بصفاتهم، والتخلق بأخلاقهم، وتحرص على التزود من العلم والعمل، الذي هو شعارهم ودثارهم، لتحظى بمكانتهم، وتنال منزلتهم، ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.

فما أجَلَّه من نِداء! وما أعظمه من مُناد! وطوبى لمن خَصّه الله تعالى بما خصهم به، ووهبه ما وهبهم!

اللـهم اجعلنا منهم، ولا تحرمنا أجرهم، واغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا.

وصلِّ اللـهم وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك النبي الأمي.

والحمد لله رب العالمين.

كتب

محمد شومان الرملي

١٤٤٣هـ

الفهرس

تم بحمد الله